جُحـا

جُحـا

أعـــلام الظرفـــاء

جُحـا

هو جحا الكوفي الفزاري، واسمه دجين بن ثابت اليربوعي وكنيته أبو الغصن،كانت أمه خادمة لأم (أنس بن مالك) ويقال: أنه كان في الكوفة إبان ثورة أبي مسلم الخراساني، وأدخله عليه مولاه يقطين فقال: يا يقطين أيكما أبو مسلم؟ وكان الجاحظ أول مؤلف عربي ذكر جحا في مؤلفاته، ذكره في رسالة عن علي والحكمين، وذكره في كتاب البغال.

وجحا شخصية فكاهية حقيقية، لكنها سرعان ما انفصلت عن واقعها التاريخي، وأصبحت رمزًا فنيًا، ونموذجًا نمطيًا للفكاهة في التراث العربي. ومن هنا قيل على لسانه آلاف النوادر أو الحكايات المرحة، على مر العصور. لقد نسي الناس جذوره التاريخية، ولكنهم لم ولن ينسوا أبدًا أسلوبه الضاحك وفلسفته الساخرة.

وعلى الرغم من كثرة أعلام الفكاهة في التراث العربي، فإن جحا يبقى أشهر شخصية نمطية فكاهية، لاتزال حيّة فاعلة ـ حتى اليوم ـ في الذاكرة الجمعية العربية، الأدبية والفولكلورية والثقافية. وشهرته الفنيِّة لا تلغي الدور التاريخي الذي يؤكد أن جحا شخصية حقيقية. فهو أبو الغصن دُجَيْن ابن ثابت الفزاري، ولقبه جحا، وقد عرف بين معاصريه بالطيبة والتسامح الشديدين، وأنه كان بالغ الذكاء، وتنطوي شخصيته على قدر كبير من السخرية والفكاهة. ووسيلته إلى ذلك ادّعاء الحمق والجنون، أو بالأحرى التحامق والتباله في مواجهته لصغائر الأمور اليومية، استعلاء منه على حياة فانية، وشعورًا بعبثية الصراع الدنيوي، وإحساسًا بالجانب المأساوي للوجود الإنساني (الموت) في وقت معًا. ولذلك لا غرو أن يعمّر جحا، وأن يعيش مائة سنة، كما يقول الجاحظ. وقد شهدت الفترة التاريخية التي عاصرها جحا أحداثًا جسامًا كان لها أبعد الأثر في أسلوبه وفلسفته في الحياة والتعبير، منها مأساة السقوط الدموي للدولة الأموية،

وهيمنة الدولة العباسية ـ بقوة السيف ـ على مقدرات الأمور العربية الإسلامية، وسط مناخ ثقافي حافل آنذاك بالصراع السياسي والعسكري والمذهبي والعرقي[1].

وفي مثل هذه الظروف التاريخية الاجتماعية حدث أن استدعى أبو مسلم الخراساني ـ عندما نزل الكوفة ـ جحا لشهرته، عسى أن يظفر منه بطرفة أو فكاهة في خضم حروبه الدموية، فخشى جحا على نفسه، وادعى الحمق والجنون في حضرته. وبالرغم من ذلك فقد أعجب به أبو مسلم، وحدث عنه الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور، الذي بادر فاستدعاه إلى دار الخلافة في بغداد لعله يصلح نديمًا أو مضحكًا (مهرجًا) في بلاطه. وقد أدرك جحا عاقبة مثل هذا الدور وهامشيته ومخاطره وقيوده، فما هو بمهرج وما ينبغي له أن يكون كذلك. فتمادى في ادعائه الحمق والجنون حتى أفرج عنه المنصور بعد أن أجزل له العطاء. وكان لمثل هذا اللقاء أثره البالغ أيضًا في ازدياد شهرته، وطلب الناس له في مجالسهم، والإغداق عليه. وهم سعداء به وبنوادره، وبرؤيته الساخرة للحياة والأحياء جميعًا، وهنا قال جحا قولته الساخرة المشهورة: " حُمْق يعولني خيرٌ من عقلٍ أعوله ".

ومن الطريف الدال على أن جحا استمرأ هذا الأمر ـ التغابي أو التحامق ـ ما دام يعفيه من تبعات الناس، ويتيح له قدرًا كبيرًا من الشجاعة في قول الحق، وحكمة الرأي وأن يكون صريحًا في التعبير عن نفسه، أنه دائمًا يستسلم لرغباته في لحظاته، وإنْ اتهمه الناس بالحمق والجنون ـ فليس ثمة عندئذ من حرج ـ مما يجعله بريئًا من الخوف أو الكبت وقادرًا على قول " المسكوت عنه " دائمًا، اجتماعيًا وأخلاقيًا وسياسيًا وإنسانيًا.

وشرع اسمه يتردد في أدبيات القرنين الثاني والثالث للهجرة، مقرونًا

(1) انظر: الموسوعة العربية العالمية.

ببعض النوادر، كما ذكر الجاحظ، ولكن ما نكاد نصل إلى القرن الرابع الهجري حتى تكون نوادره المتواترة شفهيًا قد عرفت طريقها إلى التدوين في أسواق الوراقين باسم كتاب نوادر جحا الذي كان من الكتب المرغوب فيها على حد تعبير ابن النديم في الفهرست. ومن أقدم التراجم التاريخية التي وصلت إلينا عن جحا، تلك الترجمة الضافية التي ذكرها الآبي (المتوفي سنة 421هـ، 1030م) في موسوعته نثر الدر. ثم توالت التراجم له في كثير من المصادر الأدبية والتاريخية اللاحقة. وعلى الرغم من أنها أجمعت على الوجود التاريخي لهذه الشخصية، فإنها أنكرت عليه كل ما روي عنه من نوادر بلغت من الكثرة حدًا يستحيل ـ زمانًا ومكانًا ـ أن تكون جميعًا متصلة به، بل ذكر الآبي صراحة: " أن له جيرانًا كانوا يضعون عليه هذه النوادر " أي يؤلفونها وينسبونها إليه، بل أضافوا إليه أيضًا ـ كما يقول ـ نوادر غيره من نوادر الحمقى والمغفلين والأذكياء وعقلاء المجانين وأمثالها من النوادر الذائعة في التراث العربي. وهذا يعني أن الوجدان الشعبي العربي قد انتخب جحا رمزًا لكل ضروب الفكاهة، خاصة بعد أن تَزَيَّدَ الناس عليه، فنسبوا إليه، على مر العصور، آلاف النوادر حتى ليقول عباس محمود العقاد في كتابه جحا الضاحك المضحك عبارة طريفة ذات دلالة، هي أن جحا لو تفرغ في حياته لصناعة النوادر التي نسبت إليه، لمات قبل أن تنفد روايتها أو ينتهي هو من إبداعها. ومعني هذا أن جحا انفصل عن واقعه التاريخي وتحول إلى رمز فني استقطب معظم ما قيل من نوادر التراث العربي، الذائعة، وما أكثرها! بل شرع الشعب العربي، على تعدد أقطاره، يؤلف ما يؤلف من نوادر وينسبها إلى جحا على مر العصور.

وهذا يعني أن المأثور الجحوي الذي لايزال يتنامى حتى اليوم، لم يكن ـ بداهة ـ من تأليف جحا أو إبداعه، بل كان تعبيرًا جَمْعِيّاً من إبداع الشعب العربي بعامة، ترسيبًا للتجربة ونزوعًا إلى السمر في وقت ما.

فأعلن المجتمع الشعبي على لسان جحا تأملاته في الحياة والأحياء، وجسّد تصوراته السياسية والاجتماعية والدينية، بما في ذلك " المسكوت عنه " وصاغ رؤيته للعالم، ونظرته للقيم والمثل العليا، كما ينبغي أن تكون، وذلك في صياغة أدبية جمالية، ذات قالب سردي أو شكل فني متميز هو فن الحكاية المرحة أو ما عرف في تراثنا الأدبي باسم النوادر.

غير أن النقلة النوعية الكبرى في حياة النموذج الجحوي تحققت في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، عندما دخل العرب تحت السيادة العثمانية، حيث استهوى الأتراك آنذاك هذا النموذج الجحوي العربي، فقاموا بنقل نوادره وترجمتها إلى التركية، ونسبتها إلى شخصية تركية شبيهة بالنموذج العربي، اشتهرت أيضًا بميلها للدعابة، وجنوحها إلي السخرية، وحبها للفكاهة، هي شخصية الخوجة نصر الدين، الذي كان معلمًا وفقيهًا وقاضيًا. وقد قُدّر له أن يلتقي ـ تاريخيًا ـ بتيمورلنك الطاغية المعروف؛ وأن تكون بينهما من المواقف والطرائف ما يعكس حمق هذا الطاغية وظلمه وجبروته ضد المستضعفين أفرادًا وجماعات.

وفي ضوء اتصال الثقافتين الإيرانية والتركية إبان العصور الوسطى، ادّعى الإيرانيون أيضًا لأنفسهم هذه الشخصية، وأطلقوا عليها اسم المُلاّ نصر الدين وزعموا أنها إيرانية لا تركية، ونسبوا إليها النوادر الجحوية، التركية والعربية معًا، فازدادت هذه الشخصية الفكاهية ثراء وشهرة وذيوعًا في تركيا وإيران، إلى جانب شهرته العربية بطبيعة الحال لكونه النموذج الأصل. وغدت هذه النماذج الجحوية الثلاثة جزءًا من التراث الشعبي الإسلامي، وعبر هذا التراث ـ عربيًا وتركيًا وفارسيًا ـ استطاع جحا العربي أن يعرف طريقه، باسمه وبنوادره معًا أو بنوادره دون اسمه، إلى الآداب العالمية، خاصة في إفريقيا وأوروبا وروسيا وبلاد البلقان والصين وغيرها. وذلك في الوقت الذي تجاهلت فيه ثقافتنا الرسمية السائدة حديثًا هذا النموذج الفني الإنساني، وغابت عنا أصوله

العربية خاصة عندما شرع الناشرون العرب في طباعة كتب التراث العربي، فذكروا في فهارسها ـ كلما ذكر جحا العربي ـ أنه المعروف باسم الخوجة نصر الدين. ولما جمعوا هذه النوادر في كتب مستقلة أذاعوها بين الناس تحت عنوان نوادر جحا الكبرى الشهير بنصرالدين خوجة إما جهلاً بأصوله العربية ونوادره الذائعة في كتب التراث العربي المدونة قبل ظهور الدولة العثمانية ذاتها، وهو الأرجح، وإما مجاملة لثقافة الطبقة التركية السائدة خلال القرون الأربعة الأخيرة التي كان العالم العربي فيها تابعًا للخلافة العثمانية.

ولما كان المجتمع الشعبي العربي لا يحفل بتراثه الشعبي إلا بقدر ما يحقق له هذا التراث من وظائف حيوية، فكرية وجمالية، فإنه ظل يردد ـ في موروثه الشعبي الشفهي ـ نوادر النموذج الجحوي العربي، بل صار كل قطر عربي يدعيه لنفسه، حتى بات هناك جحا المصري، وجحا الليبي، وجحا السوري، وجحا العراقي، وهكذا. واختلط الأمر على المثقفين العرب، ودبّجوا الكتب والمقالات في جحا الإقليمي، دون أن ينتبهوا أو يتبينوا أصوله العربية القومية الأساس. لكن الدراسات الفولكلورية المعاصرة أثبتت أنه ما من قطر عربي إلا وعرف النموذج الجحوي (العربي / القومي) بسَمْتِه وملامحه، وأسلوبه وفلسفته في الحياة والتعبير، فعرف فيه " صمام أمان وعصا توازن " في خضم تحدياته ومعوقاته ـ وتمثّلَ نوادره زادًا فنيًا ونفسيًا بعيد الأثر قد يدفعه إلى الابتسام والسخرية، وقد يدفعه إلى الضحك والدعابة، لما فيها من انحراف عن المألوف أو تلاعب باللفظ أو خطأ في القياس. ولكننا لو تجاوزنا قشرتها الخارجية، وتأملناها من الداخل لوجدناها وسيلة حيوية من وسائل الدفاع عن الذات العامة، مؤكدة ـ بالتناقض الظاهر أو الخفي ـ القيم الإنسانية العليا، والغايات القومية، التي تعمل الجماعة أو الأمة العربية على تحقيقها. وهذا الدور الوظيفي للنوادر في الثقافة الشفهية أقرب ما يكون

إلى الدور الذي يلعبه الكاريكاتير المعاصر، في الثقافة والصحافة المعاصرة.

وتتمثل عبقرية " الفلسفة الجحوية " أو بالأحرى عبقرية الشعب العربي الذي أبدع هذه الشخصية الجحوية، في أمرين: أحدهما في أسلوب هذه الشخصية في المواجهة، حين اكتشفت بعبقريتها أن الماساة يمكن أن تتحول إلى ملهاة، في ضوء الحالة النفسية التي نواجه منها وقائع وأعباء الحياة، فاندماج الإنسان ـ كما نعلم ـ في بؤرة الحدث أو الموقف يضنيه، وخروجه منه وفرجته به يسري عنه، وقد يضحكه، وهكذا استطاع جحا أن يكابد الحياة، ويضطرب فيها، وأن يخلق من نفسه شخصًا آخر بعيدًا عن الأول، يتفرج به ويسخر منه. وهكذا تحولت المآسي عنده إلى طرائف وملح ـ ذات طابع إنساني ـ تخفف عنه وتسري عن أفراد الشعب العربي تأسيًا به، الأمر الذي دفع الوجدان الشعبي إلى أن يسلك جحا ـ الواقع والرمز ـ مسلك الحكماء، في تعبيره الفني والأدبي. والآخر، في " تنميط " هذه الشخصية. فلم يكن الحمق أو الغباء السمة الغالبة عليه، ولكنه التحامق أو الذكاء الباحث عن جوهر الحقيقة. ولهذا لم يكن جحا مخبولاً أو ناقص العقل ـ كما يتوهم ـ ولكنه كان الإنسان الذي يتناول الأمور ـ مهما بدت معقدة أو تظاهرنا نحن بتعقيدها ـ من أقرب الزوايا إلى الحق والواقع، فيبدو مناقضًا لصنيع الآخرين الذين لا يتصورون الحق قريبًا ويمدون أبصارهم إلى بعيد.

وقد ذهب القدماء إلى تصنيف نوادر جحا المدونة إلى قسمين كبيرين، أحدهما نوادر الحمق والجنون ـ حيث الحمق أو الجنون هنا تعبير دلالي يستدعي نقيضه (فضيلة الذكاء والتعقل)، أو لغة إرشادية دالة تبوح بالمسكوت عنه (من حماقات الناس). والآخر نوادر الذكاء. ولكن المحدثين ذهبوا إلى تصنيف المأثور الجحوي الشفاهي والكتابي، طبقًا لمحتواه الدلالي: فهناك النوادر السياسية التي تتناول علاقة المجتمع

الشعبي بالسلطة الحاكمة (السلطان - القضاء - الأمن الداخلي) وخاصة في عصور القهر العسكري والكبت السياسي، وفي عصور التحول التاريخي والاجتماعي وما تمور به من متناقضات اجتماعية ونفسية، وانحرافات سياسية واقتصادية. والمتأمل لما أثر عن جحا من نوادر سياسية، قالها الشعب العربي على لسان جحا، يراها تشكل في مجملها - أسلوبًا ووظيفة - بابًا واسعًا من أبواب النقد السياسي في الأدب العربي عامة والأدب الشعبي خاصة، فلا غرو أن يستمر احتفاء الوجدان القومي بهذه النوادر الجحوية على مر العصور، وأن يظل معتصمًا بها، كلما حزبه أمر أو حفزه موقف، في تلك المعركة الأزلية بين القوى السياسية والشعب الأعزل، وما ينشأ بينهما من علاقات سلبية، نتيجة حتمية لغياب القانون، وانحراف القضاء، واختلال ميزان العدالة في فترات تارتيخية مختلفة. ليس فقط من قبيل نقد الوضع القائم، وفضح المسكوت عنه - عندما يعِزُّ القول - بل أيضًا للقيام بدور " تعويضي " حيث النادرة السياسية هنا بمثابة " تنفيس " عن قهر سلطوي ضاغط، وتهدف إلى التخفيف من المخاوف، حيث يغدو الظالمون موضوعًا للضحك والسخرية، وعندئذ يخف العداء للتسلط، نصغره فنكبر، ونحقّره فنرد لذواتنا الاعتبار. فالضحك رفض للظلم، وهذه هي الوظيفة السياسية للنادرة الجحوية. ومن الجدير بالذكر أن كثيرًا من النوادر السياسية الذائعة في المأثور الجحوي الشفهي الحديث لم تعرف طريقها إلى التدوين، بسبب حذر الناشرين من طباعتها ونشرها.

وهناك النوادر الاجتماعية، وهي من الكثرة بمكان، ولاتزال تتنامى إبداعًا وتذوقًا حتى الآن، وتتعاظم وظائفها الحيوية في نقد الواقع الاجتماعي، وما يمور به من سلبيات في القول والفعل والسلوك، مما هو سائد في حياتنا اليومية. ولهذا لم تشأ الأمة العربية أن تجعل هذه الشخصية التي أبدعتها بعبقريتها سلبية أو منعزلة، وإنما جعلتها شخصية

رجل عادي من الناس، له مشاعرهم ومواقفهم وتجاربهم، وآمالهم وآلامهم، عليه أن يسعى ـ في سبيل العيش ـ كما يسعى غيره، ويختلف إلى الأسواق، ويرحل إلى الأمصار، ويلتقي بالحكام ويتحدث إلى العامة. وهو رب أسرة، له زوج، بينه وبينها ما يكون بين الرجل وصاحبته من الأحداث والمواقف، وله معها نوادر تجسم فلسفته الخاصة في الحياة، بل تجسم ما يريده الشعب العربي من ترسيب التجربة ونقد الحياة الاجتماعية، واتصلت حياة جحا، فكان له ابن ينشئه بحكمته ويحاوره بفكاهته وسخريته، وكأنما أراد أن تمتد حياته وفلسفته أجيالاً متعاقبة. بل سوف نرى أن هذه الشخصية الساخرة تؤكد بدورها وحدة الحياة عند الأمة العربية، فلم تقتصر مواقف جحا على علاقاته بالناس، وخير ما يصور ارتباط جحا بالأحياء تعاطفه مع حماره الذي ارتقى به حتى جعل منه صديقًا أو شبه صديق، يتحدث إليه ويصب في أذنيه سخرياته اللاذعة من الحياة والأحياء. وبهذا يتكامل الثالوث الجحوي الشهير (امرأة جحا، ابنه، حماره).

ومن الجدير بالذكر أن الشعب العربي في نقده لجوانب الحياة الاجتماعية على لسان جحا، الذي سلك في ذلك مسلك الفكاهة، إنما كان يرى في ذلك التهكم الساخر ضربًا من الثأر السلمي أو القصاص العادل أو الجزاء الاجتماعي الذي تنتقم به الجماعة أو الأمة لنفسها من الخارجين على معاييرها ومثلها وقيمها، بغية الدفاع عن الذات العامة، وحفاظًا على تماسكها، وتعضيدًا لهويتها القومية. ذلك أن النوادر الجحوية بتركيزها على الجانب السلبي في الحياة والمجتمع، لا تنتقم أو تهجو فحسب، بل تعالج وتخفف من التوتر الداخلي، وتحد من مخاوف الجماعة أو الأمة، وتعيد اعتبار الذات للذات.

ومن اللافت للنظر، أن المأثور الجحوي بعامة، لم يكن وقفًا على النقد السياسي أو الاجتماعي فحسب، بل أدى وظائف أخرى، نفسية وجمالية،

بالضرورة. فالنوادر الجحوية ليست إلا تعبيرًا عن واقع نفسي وخارجي معًا، في بنية واحدة متعاضدة، إنها هنا تسخر، تنتقد، تنتقم، تفرج، تسِّري، فهي تنفيس وتفريغ لشحنات انفعالية سالبة. وتأتي النوادر الجحوية ـ في وظائفها الجمالية والإمتاعية ـ تحقيقًا للجانب الباسم في مسرح الحياة، باعتبارها رواية هزلية كبرى كما يقال، وغايتها عندئذ التسلية والإمتاع، إما تحقيقًا لهذا الجانب الباسم من الحياة (ابتسم تبتسم لك الحياة)، وإما تسرية وترفيهًا وتفريجًا عن بعض كرب الحياة وضنك العيش (شر البلية ما يضحك). وبذلك تمنحنا هذه النوادر قدرًا من " التطهير " النفسي الذي يزود المرء أو الجماعة بقوة التحمل والصبر والتفاؤل في خضم الإحباط الفردي أو الجمعي (القومي) وكأنها جرعة إنقاذية وتنشيطية غايتها " تطعيم " الناس ضد واقع محبط، وراهن جارح، وبذلك تضفي هذه النوادر الجحوية على الحياة والواقع قدرًا من التجميل الخيالي والتطهير النفسي الذي يحتاجه الناس كثيرًا[1].

مواقف من حياته:

ليس يعرفك إلا سليمان بن داود الذي حبسك:

تأذى أبو الغصن جحا بالريح مرة فقال يخاطبها: ليس يعرفك إلا سليمان ابن داود الذي حبسك حتى أكلت خراك [2].

كل شيء لا تأخذه اليد لا يفقد:

وخرج يوما من الحمام في يوم بارد فضربته الريح فمس خصيتيه فإذا إحدى بيضته قد تقلصت فرجع إلى الحمام وجعل يفتش الناس، فقالوا: ما

(1) انظر: الموسوعة العربية العالمية، الأعلام للزركلي، 2 /112، الصحاح للجوهري: مادة: غصن، الفهرست لابن النديم، ص 435، أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي، ص 25، ميزان الاعتدال، 2 / 32، حياة الحيوان للدميري، 1 / 273، ثمرات الأوراق لابن حجة الحمري، 1 / 162، تبصير المنتبه لابن حجر، 2 / 558، سير أعلام النبلاء، 8 /173.

(2) ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، ص 45.

لك؟ فقال: قد سرقت إحدى بيضتي ثم إنه دفئ وحمى فرجعت البيضة فلما وجدها سجد شكرا لله وقال: كل شيء لا تأخذه اليد لا يفقد.

ويستريح من ضغطة القبر ومسألة منكر ونكير:

ومات جار له فأرسل إلى الحفار ليحفر له فجرى بينهما لجاج في أجرة الحفر، فمضى حجا إلى السوق واشترى خشبة بدرهمين وجاء بها فسئل عنها فقال: إن الحفار لا يحفر بأقل من خمسة دراهم وقد اشترينا هذه الخشبة بدرهمين لنصلبه عليها ونربح ثلاثة دراهم ويستريح من ضغطة القبر ومسألة منكر ونكير.

وحكي أن جحا تبخر يوما فاحترقت ثيابه فغضب وقال: والله لا تبخرت إلا عريانا.

وهبت يوما ريح شديدة، فأقبل الناس يدعون الله ويتوبون فصاح جحا: يا قوم لا تعجلوا بالتوبة وإنما هي زوبعة وتسكن.

يحفر له آبار ونكبسه فيها:

وذكر أنه اجتمع على باب دار أبي جحا تراب كثير من هدم وغيره فقال أبوه: الآن يلزمني الجيران برمي هذا التراب واحتاج إلى مؤنة وما هو بالذي يصلح لضرب اللبن، فما أدري ما أعمل به، فقال له جحا: إذا ذهب عنك هذا المقدار، فليت شعري أي شيء تحسن فقال أبوه: فعلمنا أنت ما تصنع به، فقال يحفر له آبار ونكبسه فيها [1].

يخاف أن يطلب مني الأجرة:

واشترى يوما دقيقا وحمله على حمال فهرب بالدقيق، فلما كان بعد أيام رآه جحا فاستتر منه فقيل له: ما لك فعلت كذا، فقال: أخاف أن يطلب مني الأجرة.

باعه صاحبه بالبراءة من كل عيب:

(1) ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، ص 46.

ووجهه أبوه ليشتري رأسا مشويا فاشتراه وجلس في الطريق فأكل عينيه وأذنيه ولسانه ودماغه وحمل باقيه إلى أبيه، فقال: ويحك ما هذا؟ فقال: هو الرأس الذي طلبته قال فأين عيناه، قال: كان أعمى؟ قال: فأين أذناه؟ قال: كان أصم، قال: فأين لسانه؟ قال: كان أخرس، قال: فأين دماغه؟ قال: فكان أقرع، قال: ويحك رده وخذ بدله، قال: باعه صاحبه بالبراءة من كل عيب (1).

وحكى أن جحا دفن دراهم في الصحراء وجعل علامتها سحابة تظلها.

ومات أبوه فقيل له اذهب واشتر الكفن، فقال: أخاف أن أشتري الكفن فتفوتني الصلاة عليه.

وحكى أن المهدي أحضره ليمزح معه، فدعا بالنطع والسيف، فلما أقعد في النطع قال للسياف: انظر لا تصب محاجمي فإني قد احتجمت.

ورأوه يوما في السوق يعدو فقالوا: ما شأنك، قال: هل مرت بكم جارية رجل مخضوب اللحية.

ومر بقوم وفي كمه خوخ فقال: من أخبرني بما في كمي فله أكبر خوخة، فقالوا: خوخ، فقال: ما قال لكم هذا إلا من أمه زانية.

وسمع قائلا يقول: ما أحسن القمر، فقال: أي والله خاصة فى الليل.

لئلا يختلط الحنطة بالشعير:

وقال رجل: أتحسن الحساب بأصبعك؟ قال: نعم، قال: خذ جريبين حنطة فعقد الخنصر والبنصر، فقال له: خذ جريبين شعيرا، فعقد السبابة والإبهام وأقام الوسطى، فقال الرجل: لم أقمت الوسطى، قال: لئلا يختلط الحنطة بالشعير.

بمائة درهم:

(1) ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، ص 46.

ومر يوما بصبيان يلعبون بصقر ميت فاشتراه منهم بدرهم وحمله إلى البيت فقالت أمه: ويحك ما تصنع به وهو ميت، فقال لها: أسكتي فلو كان حيا ما طمعت في شرائه بمائة درهم [1].

أصحاب النذور يعطون لا يأخذون:

وقال جحا لأبي مسلم صاحب الدعوة: إني نذرت إن رأيتك أن آخذ منك ألف درهم. فقال: رأيت أصحاب النذور يعطون لا يأخذون، وأمر له بها.

يا بني لا تقم الصلاة فإني على غير وضوء:

وحكي عن جحا أن أباه قال له: دع ما أنت عليه من الجنون والمجون والخلاعة واتزن حتى أخطب لك بعض بنات أهل الثروة والشرف. فقال: نعم يا أبتاه، فتزيّن وتبخر وصار إلى مجمع الناس فقعد وهو صامت وقد حضر أشراف الناس وعظماؤهم، فقال له أبوه: تكلم يا بني، فقال: الحمد لله، أحمده وأستعينه حي على الصلاة حي على الفلاح. فقال أبوه: يا بني لا تقم الصلاة، فإني على غير وضوء.

سحابة في السماء كانت تظلها:

ومن حمقه، أن موسى بن عيسى الهاشمي مر به يوماً وهو يحفر بظهر الكوفة موضعاً، فقال له: ما بالك يا أبا الغصن لأي شيء تحفر؟ فقال: إني دفنت في هذه الصحراء دراهم ولست أهتدي إلى مكانها. فقال له موسى: كان ينبغي أن تجعل عليها علامة، قال: لقد فعلت، قال: ماذا؟ قال: سحابة في السماء كانت تظلها، ولست أدري موضع العلامة الآن.

هل كان لصاحبكم قرون:

ومن حمقه أيضاً أنه خرج يوما بغلس، فعثر في دهليز منزله بقتيل، فألقاه في بئر هناك، فعلم به أبوه فأخرجه ودفنه، ثم خنق كبشاً وألقاه في

(1) ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، ص 47.

البئر، ثم إن أهل القتيل طافوا في سكك الكوفة يبحثون عنه، فتلقاهم جحا وقال: في دارنا رجل مقتول فانظروا لعله صاحبكم، فغدوا إلى منزله، فأنزلوه في البئر، فلما رأى الكبش، ناداهم هل كان لصاحبكم قرون. فضحكوا منه وانصرفوا.

أيكما أبو مسلم؟! :

ومن حمقه أيضاً أن أبا مسلم الخراساني، صاحب الدعوة، لما ورد الكوفة، قال لمن حوله: أيكم يعرف جحا فيدعوه إلي؟ فقال يقطين: أنا. فخرج ودعاه، فلما دخل لم يجد في المجلس غير أبي مسلم ويقطين، فقال جحا: يا يقطين أيكما أبو مسلم؟!

المعارض مع أمِّه:

جفا جحا أمه فقال: هذا جزائي وقد حملتك في بطني تسعة أشهر؟ فقال: ادخلي في استي حتى أحملك سنين وخلصيني.

وليس للثالثِ شيءٌ:

قيلَ لجحا: أتعلمتَ الحسابَ؟ قال: نعمْ. فما يُشكلُ على شيءٌ منه. قال له: اقسم أربعة دراهَم على ثلاثة. فقال: لرجلين درهمان، درهمان، وليس للثالثِ شيءٌ.

رأيتم جنازة جارية حبشية:

وماتت لأبيه جاريةٌ حبشية: فبعثَ به إلى السُّوق ليشتري لها كفناً، فأبطأ عليه حتى أنفذ غيره، وحمل الكفن، وحُمِلتْ جِنازتُها، فجاء جُحا - وقد حُملتْ - فجعل يعدو في المقابر، ويقول: رأيتم جنازة جارية حبشية، كفنُها معي؟

في حاجةٍ للبغْلةِ:

وجمحت به بغلةٌ يوماً، فأخذتْ به في غير الطريق الذي أرادَه، فلقيه

صديقٌ له. فقال: أينَ عزمْت يا أبا الغصن؟ فقال: في حاجةٍ للبغْلةِ [1].

بارك اللهُ لنا في الموت وفيما بعدَ الموتِ:

ومرت به جنازة، فقالَ: بارك اللهُ لنا في الموت وفيما بعدَ الموتِ. فقيل: إنها جنازةُ نَصْراني. فقال: إذنْ لا بارك اللهُ لنا في الموتِ، ولا فيما بعد الموت.

ما لكُم؟:

وكانتْ لهم جاريةٌ يقال لها عميرةُ، فضربتْها أمُّه ذات يوم، وصاحتِ الجاريةُ واجتمع الجيرانُ على الباب. فخرجَ إليهم، وقال: مالكُم؟ عافاكم الله. إنما هي أمي تجْلد عميرةَ.

فما سالَ منه شيءُ [2] :

وصلى بقوم - وفي كُمِّهِ جَرْو كلب - فلما ركَع سقط الجروُ، وصاح، وتنحنْح. فالتفتَ إليهم، وقال: إنَّه سلُوقُّي عافاكم الله. وحمل جرةً خضراء إلى السوق يبيعُها. فقالوا: هي مثقوبةٌ. فقال: ليس تسيل، فإنَّه كان فيها قُطنٌ لوالدتي. فما سالَ منه شيءُ.

وأعطاه أبوه درهما يزنُه، فطرحَهُ في الكِفة، وطرَحَ في الكِفة الأخرى سنجة درهمين، وهو يحسبهما سَنْجة درهم، فلم يستويا، فطرح سنجة الدِّرهم على رأس الدِّرهم، فكانَ أقلَّ، فطرح حبتين أيضاً، ثم قال لأبيه: ليس في شيء، وينقُص حبتين.

احفَظ الباب:

وذهبتْ أمُّه في عرس، وتركتْهُ في البيْتِ، وقالتْ له: احفَظ الباب. فجلس إلى الظهر. فلما أبطأتْ عليه قامَ، فقلَع البابَ، وحملَه على

(1) الآبي، نثر الدر،5 /207.
(2) تجلد عميرة: يكنّى بها العرب عن الاستمناء.

عاتِقِه[1].

الموضع أقرب:

وأراد جحا الخروجَ إلى ضيعْةٍ، فقيلَ له: أحْسنَ الله صَحَابتَك: فقال: الموضعُ أقربُ مِنْ ذاك.

فأخبـزوه:

وعُجنَ في منزلِه، فطلَبوا منْه حطباً. فقالَ: إنْ لم يكُن حطبٌ فأخُبزوه فطِيرا.

كان فيها دِرْهم ثقيلٌ:

ولما حذق الكتابة والحسابَ بعث به المعلم مع الصبيان إلى أبيه. فقال له أبوهُ كمْ عشرين في عشرين؟ فقال: أربعين ودانقين. فقال وكيف صارَ فيه دانقين؟ قال: كان فيها دِرْهم ثقيلٌ.

رؤوس الحق:

أكلَ جحا يوما مع قوم رؤساً، فلما فرغ من الأكل دعا للقوم، وقال: أطْعمكُم اللهُ مِنْ رؤوس أهل الجنة.

بقاء أمه:

وماتتْ أمه فجعلَ يبكي، ويقولُ: رَحمك الله فلقدْ كان بابُكِ مفتوحاً، ومتاعك مبذُولاً.

اسكتي أنا أبي:

دخلَ البيتَ وإذا جاريةُ أبيه نائمةٌ، فاتكأ عليْها، فانتبَهتْ، وقالتْ: من ذا؟ قال: اسكُتي أنا أبي[2].

حتى يصْطلُوا بهذه النار:

(1) الآبي، نثر الدر،5 /208.
(2) الآبي، نثر الدر،5 /209.

وبات ليلةً مع صبيانٍ له، فجعلوا يقُسون. فقال لامرأته: هذا - واللهِ - بليةٌ. قالت دَعْهم يقْسون فإنَّه أدفأُ لهم. فقام وخرى وسطَ البيت، ثم قال: أنْبهى الصبيانَ حتى يصْطلُوا بهذه النار.

الوجه المستطيل:

قيل له: ما لوجهك مستطيلاً؟ قال: ولدتُ في الصيفِ، ولولا أن الشتاء أدركهُ لسال وجهي.

أصل تينك:

وَكَانَ فِي دارهم شجرةُ تين، وكانتْ الدار لأمه. فدعا أبوه قوماً فسكِروا، وجعلوا يبولون فِي البستان. فقال لأمه: يَا أمه: هو ذي يبولُون فِي أصْل تينك.

لا تحملوها:

وماتت ابنةٌ له فذهب ليشتري لها كفناً، فلما بلغ البزازين رجع مسرعاً فقال: لا تحملُوها حتى أجيءَ أنا.

في مجلة بني فلان:

ومرَّ في الميدانِ فرأى قصرا مشرفاً، فوقف ينظر إليه، ويتأمْله طويلاً، ثم قال أتوهمُ أني رأيتُه في مَجلَّةِ بني فُلان.

لكسرت أنفك:

ودخل البستان فتعلَّق ثوبُه بشجرة، فالتفت، وقال: لولا أنك بهيمة لكسرتُ أنْفك.

ويطفو فوق الماء:

وخرج يوما ومعه أناء يستقي فيه مِن ماء النهر، فسقط مِنْ يده وغرق فَقعد على شطِ النهر، فمَّر به صاحبٌ له، فقال: ما يُقعِدك ها هُنا؟ قال: إناء لي قدْ غرق وأنا أنْتظُر أنْ ينتَفخَ ويطفُو فوقَ الماء.

ومن أين لك خردل تأكله به:

واشترى يوماً نقانق فانقض عليه عقابٌ، وانتسفَ بعض النقانِق فَطَار به فنظر إليه، وقال: يا شقيُّ. ومن أين لك خَردَلٌ تأكلُه به؟؟

بقي الطي:

وأسلمتْه أمُّه في الخياطين، فقالتْ له بعْد حَولين: تعلمت شيئًا؟ قال: نعمْ. تعلمت نصْفَ العمل. قيل: وما تعلَّمتَ؟ قال: تعلمتُ النشرَ، بقي الطيُّ.

خشيت أن أوجعه:

وتعلَّق بلص في بعض الليل، فصاح اللصُّ: قُرحتي. فخلاهُ حتى مر، وقال: خشيتُ أنْ أوجعهُ [1].

إن صدقت الرؤيا مطرنا خرا:

كان جحا نائماً إلى جنب أمه، فضرطت فتشورت فقالت: يا بني رأيت رؤيا فيها رعد وبرق ودوي، فقال: يا أمي، إن صدقت الرؤيا مطرنا خرا[2].

أهل السجن يضرطون الليل والنهار:

وذكروا عنده الضراط وقيل: هو شؤم فقال: وما شؤمه؟ قالوا: يبدد الجماعات، ويفرق الشمل، قال: فهذا باطل، أهل السجن يضرطون الليل والنهار ولا يفترقون[3].

من له يحلف إذا كذبت:

قال ابن كناسة: كان جحا كوفياً، وكان مولى لبني أسد، وقد روى الحديث وحمل عنه؛ ومات صديق له، فظل يبكي خلف جنازته ويقول: من لي يحلف إذا كذبت، ومن لي يحثني على شرب الخمر إذا تبت، ومن لي يعطي عني في الفسوق إذا أفلست، لا ضيعني الله بعدك، ولا حرمني

(1) الآبي، نثر الدر،5 /210.
(2) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، 181/1.
(3) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، 246/1.

أجرك[1].

وأما ديوك الناس لا:

نام جحا مع أمه فضرطت، فأحبت أن تعلم ما عنده فقالت: يا أبا الغصن هل صاح الديك؟ فقال: أما ديكك فقد صاح، وأما ديوك الناس لا[2].

لا تساوي أربعة دراهم:

نام جحا مع أمه فضرطت، وأحبت أن تعلم ما عنده فقالت له: بكم اشترى أبوك هذه القطيفة؟ قال: بأربعين درهم، وإن بقي ضراطك فيها أصبحت لا تساوي أربعة دراهم[3].

الطريق يا حمصي!:

قال أبو الحسن: نظر جحا إلى رجل بين يديه يسير على بغلة، فقال للرجل: الطريق يا حمصي! فقال الرجل: ما يدريك أني حمصي؟ قال: رأيت حر بغلتك، فإذا هو يشبه الحاء، ورأيت فقحتها فرأيتها تشبه الميم ورأيت ذنبها فإذا هو يشبه الصاد، فقلت: إنك حمصي[4].

* * *

(1) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، 247/1.
(2) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، 263/1.
(3) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، 264/1.
(4) الجاحظ، البغال،5/1.